

مقدمة

ربما يكون من دواعى فخري وحزنى فى ذات الوقت أن يكون عنوان ومضمون هذا الكتاب الذى بين يدى القارئ الكريم هو الأول على الإطلاق فى المكتبة المصرية والعربية على السواء.

الفخر لأننى بحمد الله وعونه استطعت سبر أغوار فترة العصر الوسيط من تاريخ اليابان التى قد تبدو للوهلة الأولى صعبة الفهم ومملة للقارئ المصرى والعربى، إلا أننى على ثقة بأن القارئ إذا ما بدأ فى القراءة فلن يملها حتى ينتهى من قراءة الكتاب إلى آخر صفحة بإذن الله تعالى، وذلك لحيوية الأحداث وطرافتها فى كثير من الأحيان.

أما حزنى فهو لتأخرنا نحن العرب بشكل عام والمصريين بشكل خاص فى الكشف عن غموض هذه الفترة من تاريخ اليابان وغيرها حتى وصلنا إلى العقد الثانى من القرن الواحد والعشرين، فى حين أن اليابانيين قد أنجزوا العشرات بل والمئات من الكتب عن تاريخ مصر والعرب منذ زمن بعيد.

وقد جاء هذا الكتاب فى ثمانية فصول.. أما الفصل الأول فقد جاء فى بدايته كيف كان أول احتكاك لليابانيين مع الغرب مثيرا وغريبا لهم، وذلك فى أول قدوم للغرب نحو اليابان فى منتصف القرن السادس عشر. وقد جاء الأوربيون إلى اليابان ومعهم البندقية ذلك السلاح الذى لم يكن يعرفه اليابانيون من قبل، وقد رحب كل الزعماء اليابانيون بقدوم البندقية حتى يستعملوها فى حروبهم ضد بعضهم البعض ولكنهم لم

يفعلوا ذلك مع قدوم المسيحية والتبشير بها، حيث حازت على إعجاب القليل منهم ونفر منها الكثيرون وعلى الأخص الحكام خوفا من هذا الدين الجديد الذين رأوا فيه تقويدا لدعائم حكمهم.

وقد تناولنا نشاط عدد من المبشرين من أجل نشر المسيحية فى اليابان، كان من أهمهم فرانسيسكو زافيير الذى كانت له الريادة فى هذا الأمر. وفى الفصل الثانى تناولنا قصة الزعيم أودا نوبوناغا وجهاده من أجل توحيد اليابان تحت زعامة واحدة. وكانت أولى الخطوات الهامة من أجل تحقيق الوحدة هى انتصاره فى موقعة أوكيها زاما فى عام ١٥٦٠م، ثم تحالفه مع المحارب الماكر ماتسودايرا موطوياسو (طوكوجاوا إبياسو فيما بعد)، وتابعا قصة كفاح نوبوناغا حتى دخل عاصمة البلاد آنذاك كيوطو وأمسك بمقاليد معظم البلاد إلا أنه توفى أو بالأحرى أعتيل فى عام ١٥٨٢م دون أن يحقق الوحدة الكاملة ليكمل هذا المشوار من بعده خلفه طويوطومى هيديوشى.

وفى الفصل الثالث ذكرنا ما حدث بعد وفاة نوبوناغا وما نجم عنها من مشكلة من يخلفه فى الحكم حتى استطاع تابعه وزراعه الأيمن طويوطومى هيديوشى أن يقبض على مقاليد الأمور بكل الحزم مع كثير من الحرص والمكر، ثم إنشاء قلعة أوساكا الكبيرة، ووصف لهذه القلعة الشهيرة.

وكانت الخطوة الكبرى لهيديوشى فى سبيل إحكام قبضته على البلاد وهى حصوله على لقب « كانباكو » أى مساعد الإمبراطور الأول وذلك فى عام ١٥٨٥م ليصل بذلك إلى أرفع المناصب فى البلاد على الرغم من أن أصوله ترجع إلى أسرة ريفية فقيرة.

وكخطوة أخرى هامة من أجل تنظيم أحوال البلاد قام هيدىوشى بإجراءيين كبيرين وهما مسح الأراضي الزراعية حتى يضمن أكبر قدر ممكن من الضرائب العينية، وكذلك نزع الأسلحة من الفلاحين حتى يضمن عدم حدوث ثورات تستخدم فيها هذه الأسلحة من سيوف وخناجر وغيرها.

وتحدثنا أيضا في معرض حديثنا عن طويوطومى هيدىوشى عن معاملته للمسيحية والمؤمنين بها والتي تراوحت بين اللين والشدّة، وبرغم ذلك فهو لم يحاول قطع علاقاته التجارية مع بعض الدول الأوربية وخاصة البرتغاليين، مما كان السبب في تسرب المبشرين ونشاطهم لكى تنتشر المسيحية فى أماكن كثيرة باليابان.

وتحدثنا أيضا عن علاقة هيدىوشى بكوريا الجارة الصغيرة ومحاولته التهامها واحتلالها من خلال محاولتين للغزو وذلك فى عامى ١٥٩٢م و ١٥٩٧م وفشله فى كلتا المحاولتين. ولكنه بذلك بذر بذور الكراهية لدى الكوريين نحو اليابانيين واليابان لفترة طويلة. ولم يلبث هيدىوشى أن توفى فى العام التالى لإخفاقه فى الحرب على كوريا أى فى عام ١٥٩٨م، ولكنه قبل وفاته جمع قواده وأتباعه وجعلهم يتعهدون له بمعاونة ابنه هيدى يورى بعد وفاته.

وفى نهاية الفصل الثالث تحدثنا عن الثقافة التى سادت فى عهد هيدىوشى والتى أطلق عليها ثقافة عصر موموياما، وتعنى ثقافة عصر جبل الخوخ وذلك لأن المكان الذى أقيمت فيه قلعة فوشيمى التى شيدها هيدىوشى زرعت به أشجار الخوخ وذلك بعد اندثار هذه القلعة. وبالطبع تحدثنا من خلال هذا الجزء من الفصل الثالث عن مميزات

ثقافة موموياما وكذلك تحدثنا عن مميزات وخصائص ثقافة أزوتشى التى سادت خلال عهد سلفه نوبوناغا.

أما الفصل الرابع فهو يعد بداية للحديث عن عصر طوكوجاوا، وهو الجزء الثانى من عنوان الكتاب الذى بين يدى القارئ الكريم. ويسمى هذا العصر بذلك الاسم نسبة إلى مؤسسه وهو طوكوجاوا إيباسو وهو الذى خلف الزعيم طويوطومى هيديوشى، ويسمى أيضا بعصر إيدو نسبة إلى المكان الذى كان مقرا للحاكم العسكرى (الشوجون) أو بالأحرى نسبة إلى عاصمة البلاد السياسية منذ بداية حكم أسرة طوكوجاوا إلى أن سقط هذا الحكم فى عام ١٨٦٧م. وتحدثت عن الإرهاسات التى سبقت نشأة هذه الحكومة العسكرية حتى استطاع إيباسو القبض بيد من حديد على مقاليد الحكم فى كافة أنحاء البلاد وإتمامه عملية التوحيد على أكمل وجه.

كذلك تحدثنا عن إنشاء إيباسو لقلعة إيدو، واستخدامها أيضا كمقر للشوجون وعائلته وأعوانه، وإلى جانب ذلك استخدمت كمقر للهيئات والمؤسسات الحكومية. وتحدثنا أيضا عن الأنواع الثلاثة من الدايميوات (حكام الأقاليم) وعن خليفة إيباسو ابنه هيدي تادا ومجهوداته من أجل إحكام قبضة الباكفو على مقاليد البلاد. وكذلك مجهودات الشوجون الثالث إيميسوتو من أجل نفس الهدف، وإقراره لما عرف فى التاريخ اليابانى بدوام الدايميوات «Sankin-kōtai» الذى كان يمثل عبئا ثقيلا على كل حكام الأقاليم ولكن كان له فوائده، يمكن للقارئ التعرف إليها من خلال متن الكتاب. وكذلك فرض إيميسوتو سطوته على البلاط الإمبراطورى ورهبان المعابد.

وتحدثنا أيضا من خلال الفصل الرابع عن بدايات الباكفو والعلاقة مع الدول الأجنبية، تلك العلاقة التي كانت معقدة إلى أبعد الحدود. وكانت سياسة العزلة من أهم ما ميز عصر الطوكوجاوا. فماذا كان تأثيرها على الديانة المسيحية وعلى معتنقيها؟ ثم جاءت ثورة شيما بارا التي كان معظم المشاركين فيها من المسيحيين، وكيفية تعامل الباكفو مع هذه الثورة. وفي نهاية الفصل الرابع تحدثنا عن الأوضاع في الريف والحضر ومدى معاناة السكان في كليهما، وكذلك نوعية السكان في الحضر وخصائص هؤلاء السكان.

وجاء عنوان الفصل الخامس مطابقا لسياسة الباكفو التي حاولت اتخاذ القانون والنظم أساسا لها بدلا من القمع واستخدام القوة، وقد بدأت هذه السياسة منذ عهد الشوجون الرابع طوكوجاوا إيبیتسوننا، وكان أشهر ما يميز هذا الشوجون هو تحريمه لعادة انتحار التابع عقب وفاة سيده. وقد أعقب هذا الشوجون الراجح العقل شوجون آخر غريب الأطوار هو الشوجون الخامس تسونا يوشى، وسوف يجد القارئ من هذا الشوجون أفعالا غريبة ربما تذكره بالخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله.

وفي خلال فترة حكم الشوجون تسونا يوشى التي استمرت لثلاثين عاما من عام ١٦٨٠م إلى عام ١٧٠٩م جاءت الفترة الإمبراطورية المعروفة بجنروكو في النصف الثاني من عصر تسونا يوشى، وعلى الرغم من غرابة أطوار هذا الشوجون إلا أن شهرة عصر الجنروكو فاقت بكثير شهرة تسونا يوشى، وذلك لما عرف عن هذا العصر من تقدم وازدهار في مختلف نواحي الحياة. ويمكن للقارئ الكريم أن يطالع هذا من خلال الجزء الثالث والرابع من الفصل الخامس.

أما الجزء الخامس من الفصل الخامس فيتحدث عن قصة لمجموعة من الساموراي الأوفياء حدثت في فترة الجنروكو ومدى حب اليابانيين لهذه القصة حتى إنهم خلدوها في قصص ومسرحيات عديدة تدل على احترام اليابانيون لصفة الوفاء في الإنسان منذ زمن بعيد.

أما الجزءين السادس والسابع من الفصل الخامس فيتحدثان عن الشوجون السادس إيينوبو ومستشاره العالم الكبير أراي هاكوسيكى وتصحيحهما لمسار الباكفو على الرغم من أن فترة حكم هذا الشوجون لم تتعد أربع سنوات فقط. كذلك تحدثنا عن شخصية المستشار أراي المتميزة.

وتتحدث من خلال الجزء الأول من الفصل السادس عن أعظم شوجون فى تاريخ عصر إيدو ألا وهو الشوجون الثامن طوكوجاوا يوشيمونى ، وعن إنجازاته العديدة وكذلك عن خصائصه التى كان من أشهرها حبه لكل جديد. وفى الجزء الثانى من هذا الفصل تحدثنا عن ابنه الأكبر الشوجون التاسع إيشيجى الذى لم يكن خير خلف لخير سلف والذى أعقبه أيضا شوجون ضعيف هو الشوجون العاشر إيبهارو الذى ترك دفة الحكم لمستشاره تانوما أوكى تسوجو الذى يعد عصره من أكثر عصور المستشارين فسادا. وقد تناولنا هذا الفساد ومظاهره من خلال الجزء الثانى من الفصل السادس.

وتناولنا كذلك الحديث عن المجاعات التى حدثت فى عصر تانوما. وفى الجزء الثالث من نفس الفصل تحدثنا عن إصلاح كانسى ومفجره المستشار ماتسودايرا سادانوبو حفيد الشوجون العظيم طوكوجاوا يوشيمونى. وقد تناولنا قرارات إصلاح كانسى التى جاءت لإصلاح ما أفسده تانوما

وسياسته. وعلى الرغم من صدق نوايا سادانوبو إلا أنه واجهه حفا تعا
ولذلك لم يلبث سادانوبو أن اساقال من منصبه بعد أقل من سسا سناوا
فقط من سوا هذه المسؤولة. ورغم عظمة سادانوبو إلا أن له سقسطة كببرة؁
وذلك لمعاقبته رجلا ذا عقلية فذة سابقا لعصره مثل هاياشى شيهى الذى
كان يريد حماة حدود بلاده بفكره الثاقب؁ إلا أن ماسودايرا عاقبه
على ذلك وحدثت إقامته. وقد جاء الحديث عن هذه السقسطة فى معرض
حديثنا فى آخر جزء من الفصل السادس ألا وهو الخطر الروسى.

أما فى الفصل السابع فقد تناولنا مسيرة الباكفو نحو نهايتها؁
وذلك لعدة أسباب من أهمها طول فترة حكم الشوجون الحادى عشر
طوكوجاوا إيينارى التى امتدت لنحو نصف القرن ليصبح بذلك أطول
من أمضى من الشوجونات فى حكمه للبلاد على الإطلاق. وكان يصرف
ببذخ على أنجاله من الأولاد والبناا واضطر لهذا البذخ أن يسك عملات
رديئة أدت بالسالى إلى ضعف الاقاصا. ورغم ذلك تمتعت مدينة إيدو
وأهلها بحياة مرفهة فيها الكثير من المتعة.

وبسبب الهوة العميقة بين الفقر والغنى فى فترة حكم الشوجون
إيينارى فقد قامت ثورة عارمة فى أوساكا قادها أحد المصلحين
الاجتماعيين هو هيهاتشيرو احدثنا عنه فى الجزء الثانى من الفصل
السابع؁ وفى الجزء الثالث احدثنا عن أزمة السفينة موريسون الأمريكية
السا جاءت فجأة إلى ميناء أوراجا التابع لمقاطعة كاناجاوا عام ١٨٣٧م
وقد أحدث مجئ هذه السفينة إرباكا عظيما لمسئولى الباكفو واحاروا
فى كيفية التعامل معها. وقبيل حدوث أزمة السفينة موريسون اهاجمت
اليابان مجاعة رهيبه من عام ٤-٧ من فترة تنبو أى منذ عام ١٨٣٣م حتى

عام ١٨٣٦م، وقد تحدثنا عن هذه المجاعة بإسهاب من خلال الجزء الرابع من الفصل السابع، مما حدا باليابان أن تقوم بآخر إصلاح فى عصر الطوكوجاوا وهو إصلاح تنبو الذى نفذه المستشار ميزنو تاداكونى. ويعد هذا الإصلاح بمثابة الإفاقة الأخيرة لحكومة الباكفو العسكرية قبل سقوطها بعد ذلك بأقل من ثلاثين عاما.

وفى الجزء الخامس من نفس الفصل تحدثنا عن الإصلاح فى المقاطعات الأخرى وكيف أن هذه المقاطعات قد بزت الباكفو فى عملية الإصلاح بل وتفوقت عليها لتصبح هذه المقاطعات طليعة المقاطعات التى سوف يكون لقادتها الريادة فى العصر الجديد الذى سوف يلى عصر الطوكوجاوا ألا وهو عصر مييجى الذى سوف تنطلق من خلاله اليابان لتصبح من بين الدول المتقدمة عاليا. وفى الجزء السادس والأخير من الفصل السابع تحدثنا عن سنوات الباكفو الأخيرة وما حدث خلالها من أحداث جسام جعلت الباكفو تعجل بنهايتها، وقد نبهنا القارئ الكريم إلى العودة إلى كتابنا « تاريخ اليابان فى عصر مييجى » ليطلع بطريقة أكثر إسهابا وتفصيلا على أحداث هذه السنوات الأخيرة من عصر الباكفو من خلال الفصل الأول من هذا الكتاب المذكور توا.

أما الفصل الثامن والأخير من كتابنا هذا فقد خصصناه من أجل الحديث عن ثقافة النصف الثانى من عصر إيدو أو بالأحرى من عصر أسرة طوكوجاوا. ومن خلاله تحدثنا عن انتشار التعليم بين عامة الشعب ومانوع التعليم الذى ساد فى هذه الفترة. وتحدثنا أيضا عن انتعاش الدراسات اليابانية عوضا عن الدراسات الصينية التى ذاعت فى النصف الأول من عصر إيدو، ونوعية هذه الدراسات وأشكالها.

وفى الجزء الثالث من هذا الفصل تحدثنا عن تطور العلوم الغربية وخاصة الطب. وأحدث نهم اليابانيون لطلب العلم الغربى رعبا وخوفا من الغرب تحدثنا عنه فى الجزء الرابع من الفصل الثامن ومدى تأثير هذا الرعب على العلماء الغربيين واليابانيين على السواء.

وفى الجزء الخامس والأخير من الفصل الثامن تحدثنا عن النشاط الأدبى والفنى فى النصف الثانى من عصر الطوكوجاوا وانتشار نوعيات مختلفة من القصص. وكذلك ازدهار شعر الهايكو الذى تميز به عصر إيدو، وكان كوباياشى إيساهو أعظم شعراء الهايكو فى النصف الثانى من عصر طوكوجاوا. وفى فن القصة والرواية تميزت أعمال العديد من كتابها بخروجهم عن المألوف حتى إنهم اتهموا بتدمير التقاليد بسبب رواياتهم العاطفية، فتم معاقبة عدد من هؤلاء الكتاب. أما فى مجال الفنون فسوف نرى أن أعظم وأشهر لوحات أوكيوأى قد أبدعت فى النصف الثانى من عهد طوكوجاوا. وظهرت اتجاهات جديدة تحاكي الفن الغربى فى الرسم. وسوف نتعرف إلى العديد من رسامى هذه الفترة وبعض أعمالهم.

ويبقى لنا بعض النقاط التى نحب أن نوضحها للقارئ الكريم وهى كالتالى:

عصر طوكوجاوا هو ذاته عصر أيدو.

كلمة باكفو تعنى الحكومة العسكرية فى أيدو.

على الرغم من صعوبة أسماء الأعلام من أشخاص وأماكن فلم يكن

أمانا سوى ذكرها، وحتى نسهل على القارئ الكريم قراءتها فقد كتبناها بالحروف اللاتينية. ولم يكن هناك من بد من كتابتها لأن عدم كتابتها

يعنى أن يكون مسرح التاريخ بلا أشخاص صنعت هذا التاريخ. وبلا أماكن أيضا جرت عليها أحداثه ، وهذا بالطبع غير ممكن وغير مقبول. لقد تعمدت ذكر بعض المصطلحات التاريخية باللغة اليابانية ولكنها مكتوبة بالطبع بالحروف اللاتينية وذلك ليكون عوناً للذين يريدون البحث فى التاريخ اليابانى بشئ من التعمق. وبعد لا يسعنى سوى أن أشكر القارئ على عزمه لقراءة هذا الكتاب ، وأعتذر له فى ذات الوقت إذا ما صادف صعوبة ما بسبب غرابة الأسماء أو الأحداث ، ولكن عزائى الوحيد هو المجهود المضنى الذى بذلته من أجل إخراج هذا الكتاب وكذلك طرافة الكثير من الأحداث التى سوف تصادف القارئ. والله ولى التوفيق.

هشام عبد الرؤوف حسن

ديسمبر ٢٠١٢م

مدينة السادس من أكتوبر - غرب سويفد